● الفصل الثانى

نهاية «نظام الملك»

أسباب اغتياله، من هو المسئول عن قتله؟

غرائب القدر.. ضريحه فى أصفهان.

obeikandl.com

obeikandl.com

نهاية «نظام الملك»:

قلّما نجد بين عظماء التاريخ من مات حتف أنفه، وندر أن نشهد بين كبار النفوس من انتقلت روحه إلى بارئها وهو على سرير الموت بين أهليه وعائلته.. ولكنّها كثيراً ماتسيل مع الدماء المتدفقة فى ساحة الجهاد من أجل الفضيلة والحرية فتطهر الأرض من أدران الفساد والاستبداد والأنانية.. ثمّ ترتفع إلى السماء راضية مطمئنة فتبعث فى النفوس العزة والكرامة، وفى العقول النور والهداية وفى الأجسام العفّة والطهارة.

وهؤلاء النفر من شهداء المبادئ السامية على قلتهم كثيرون، وعلى كثرتهم نادرون، فمن الخلفاء الراشدين وهم أربعة، استشهد ثلاثة. وفى عصر بنى أمية كانت أرواح الأحرار والخارجين على الظلم والطغيان تراق، ومن أمثلتهم: «الحسين بن علىّ»، وحفيده «زيد بن علىّ» وغيرهما.. وفى عهد بنى العباس لقى ذوو الأفكار الحرّة من رجال المعتزلة والشيعة أصناف التعذيب والقتل بتهمة الزندقة والكفر حتى أخذ الناس يبطنون معتقداتهم لا فرق بين سنىّ وشيعىّ فى بعض الأحيان. كأنى بالشاعر يعنى هؤلاء حيث قال:

وإذا كانت النفوس كباراً تعبت فى مرامها الأجسام

وسارت عجلة الزمن لا تلوى على شىء، ولا يحول دون تقدمها حائل، وكأن تلك الدماء الزكيّة هى الوقود الذى يغلى بها مرجل الحركة الصاعدة، وكانت تلك المبادئ الطليقة هى المشعل الذى يستنير به الخلف الطالع إلى عالم أفضل، إلى أن حلّ عام خمس وثمانين بعد الأربعمائة للهجرة، إذ وقف لوزيرنا «النظام» شخص متنكر بزىّ صوفى فطعنه بخنجر فى حين يقرأ هو عريضة شكواه؛ فأرداه قتيلاً.

ومن المؤسف حقّا أن ترافق الإنسانية مشكلة السلوك الاجتماعى وإحياء الضمير على الرغم من تعاون القوانين والأديان، وتطاول الأجيال والأزمان على حلها فلا تستطيع لها حلاً.. ويبقى الصراع عنيفًا قاسيًا بين الولد وأبيه والشقيق وأخيه، والصديق وزميله من أجل المنصب والجاه وأعراض الدنيا الزائلة.

ولم يكن التنافس على المنصب وبخاصة الوزارة بالشىء الخفى أو الغريب على «النظام» فقد قرأ الكثير من أمثلته فى تاريخ الأسر الحاكمة.. ولكن الغريب لديه ـ كما يلوح لنا من سيرته ـ هو اختلاق الأكاذيب عليه والطعن فى إخلاصه للدولة والسلطان، وأن يكون باعثه من المقربين إليه والأثيرين على نفسه الذين شقّ لهم الطريق حتى ساواهم به.. فكان من المحزن الأليم عنده أن يرى أمام عينيه أو يطرق سمعه مكيدة إخوان له يحوكون الدسائس ضده ويتآمرون فيما بينهم للإيقاع به فيُقتل هذا جزاء خيانته، ويسجن ذاك أو ينفى، ويُصادر نتيجة لسوء فعلته.. وكان كلما حاول أن يصفّى لبه من أوضار الحقد والكراهية، وبذل الجهد فى تغلّب إرادته على نوازعه، لأن مقاومة النفس الجشعة جهاد، والقتل فى ساحتها استشهاد بنظر المتصوّفة، وهو منهم فانتصر عليها، ظهر له غريم آخر يضطره للمبارزة فيجهز عليه قبل أن يفتك به لأن دفع الضرر المتوهم واجب عقلاً.. فهو كالشرر إن اعتبرته شيئًا تافهًا تسبّب فى إحداث ضرر عظيم[1].

بهذا حدّد «النظام» لنا موقفه من أعدائه ونصّ عليه فى وصاياه لابنه وهو موقف نبيل إلى حد كبير بحيث لا يتفق والسياسة بمعناها الصارم الذى كان مألوفًا يومذاك، ولا ينطبق ـ بما عرف عنه من لين ومسايرة وصفح وتغاضى على سياسى آخر، فهو يوصى ابنه أولاً بإعزاز مخالفيه وإكرامهم على ألاّ يحمل ذلك محمل الخوف والتردد واشتغالهم بمختلف الأشغال، ونقد أعمالهم الفاسدة بصورة معقولة بحيث لا يتعدى ذلك إلى ما يؤدى إلى هلاكهم، لأن هذا عقلاً وشرعًا مذموم، وأن عامله فى الدنيا والآخرة ملوم[2]، وهو بناءً على

(١) الوصايا ص ٦٩.
(٢) الوصايا ص ٧٠.

خطته واعتقاده هذين كان حذرًا نبيهًا فلم يوجس خيفة من أحد، أو شعر بدنوه من السلطان وتدخله فى أعمال الدولة أو شئون الخاصة إلاّ حاول إبعاده لئلا يستفحل أمره بحيث لا يستطيع إيقافه، فطلب ـ مثلاً ـ تعيين قسيم الدولة «آق سنقر» لولاية حلب، ثمّ أشار على السلطان تسليمه قلعتها وأعمالها وحماة واللاذقية ومنبج وما معهما حين شعر بقربه من السلطان واستيلائه عليه، وبهذا ضرب عصفورين بحجر ـ كما يقول المثل ـ إبعاده عن الديوان، واعتبار عمله هذا خدمة له وفضلاً عليه[1].

وبمسلكه هذا فقد اختار لنفسه ـ كما يبدو لنا من سيرته ـ مركبًا صعبًا محفوفًا بالمخاطر والمزالق.. مخاطر المتزلفين الذين يدسّون له عند السلطان ومزالق الطريق الشائك الذى اختطّه لسياسته وسار بموجبه.. فالعدل الذى يتوخّاه فى كل حكم يصدره وكل عمل يقوم به، وآراؤه التى يفرضها على دار الخلافة أحيانًا والسلطنة غالبًا فى التعيين وحل مشكلات الدولة، وموقفه الصريح فى معاضدة الخلافة ومكافحة الباطنية، ثم الإسراف فى البذخ على المتصوّفة ورجال العلم بحيث صار هؤلاء وأولئك من الدعاة له فى السفر والحضر.. هذه الأمور مع طول الأمد وتزايد المغرضين مما قضت على «النظام» وسبّبت اغتياله بل عجّلت فى قتله قبل أن يصل بغداد ليلتقى بسلطانه الذى يضمر فى نفسه ما لا يخفى على وزيره من تغيير ولاية عهد الخليفة العباسى وتقل الخلافة إلى حفيده، ومن ثمّ لأسرته[2].

تذكر لنا المصادر أنه لم يستقر السلطان ملكشاه فى مستهل شهر رمضان من سنة ٤٨٥هـ فى أصبهان بعد عودته من زيارته الثانية لبغداد سنة ٤٨٤هـ حتى قَفَلَ راجعًا إليها بنيّة غير مرضية وهى تحقيق الفكرة التى كانت تراوده منذ سنة ٤٧٠هـ، وهى نزع الخليفة من منصبه[3].

(١) المقدسى ـ الروضتين ـ جـ ١ ص ٢٤، ٢٥.

(٢) ابن الجوزى ـ المنتظم ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٣) ابن خلطان ـ الوفيات جـ١/ ٢٩٥.

وقد تخلف «النظام» عن ركب السلطان لمرض ـ النقرس ـ الذى كان يشكوه[1]. ولكنه سرعان ما اتجه وراءه خوفًا من ألسنة السوء ولشعوره بضرورة مرافقة السلطان فى زورته لعاصمة الخلافة هذه المرة، خاصة إذ كانت معه زوجته تركان خاتون ومستشاره ـ أبو الغنائم تاج الملك الشيرازى ـ فالتحق بمعسكر السلطان.. وفى ليلة الجمعة العاشر من رمضان من عام ٤٨٥هـ (١٤ أكتوبر ١٠٩٢م) بمرحلة سحنة[2] بالقرب من نهاوند[3]. اعترض موكب «النظام» وهو فى محفّته خارج من المخيم إلى الحريم بعد إفطاره وانفضاض مجلسه، شخص يحمل عريضة فوقف له وما أن سلّمها إليه وانشغل بقراءتها حتى طعنه بسكين فى خاصرته فقتله[4]، ثم قبضوا على القاتل وهو هارب بعد أن عثر بطنب إحدى الخيام وقتلوه[5]. وقيل اختفى فلم يوجد له أثر ولا سمع له خبر[6].

وبهذا اختفت المعالم الثابتة للجريمة وبقيت أقوال المؤرّخين فيها أشبه بالتكهنات والفروض يعوزها الحجة الثابتة والبيّنة القوية وصار بعضهم يميل إلى تحريض السلطان وآخرون إلى تآمر زوجته تركان مع وزيره الجديد ـ تاج الملك ـ وثالث إلى إيعاز زعيم الباطنية ـ الحسن بن الصبّاح ـ ويذهب رابع إلى أبعد من ذلك فيشرك دار الخلافة بالمؤامرة.. لأن ما وصلنا عن هذه القضية ـ إن استقرأناه واستعرضناه ـ لا يعدو اختلافًا فى كل شىء من عناصر الجريمة فى شخصية القاتل ولباسه ومكان الحادث وزمانه، ثم الدوافع المباشرة لقتله والخلاص من سياسته.

---

(١) الوصايا ص ٩.

(٢) ابن خلكان ـ الوفيات جـ ١ ص ٢٩٥.

(٣) ياقوت ـ معجم البلدان جـ ٣ ص ٤٩٩.

(٤) ابن الجوزى ـ المنتظم ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٥) ابن الأثير ـ الكامل ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٦) ابن القلانسى ـ ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١.

فقد كان اختلافهم فى هذه الأمور أكثر مما اختلفوا فى ميلاده ونسبه، فمن قائل: أتاه ديلمى فى زىّ الباطنى[1]، وآخر صبى ديلمى على هيئة صوفى[2]. وثالث حدَثَ ديلمى من الباطنية فى صورة مستميح أو مستغيث فضربه بسكين[3]، وقيل: بخنجر[4]، وقيل: رجل باطنى ديلمى قتله وهرب من ساعته فطُلب فلم يوجد ولا ظهر له خبر ولا بان له أثر[5]، وقيل: إنما استقبله واحد من اثنين خرجا من قلعة ابن الصبّاح حينما سدّ «النظام» مسالك القلعة عليه بالعساكر فضربه وهرب فعثر بطنب الخيمة فقتلوه[6].. وأهمل اسمه هؤلاء وغيرهم وذكره أحد المؤلفين الفرس بأنه ـ أبو طاهر الأوانى[7]...

وهكذا قالوا: فى مكان الحادث إنه بالقرب من نهاوند أو فى قرية يقال لها سحنه بين كنجوار وبيستون[8]، ويسميها أحدهم ـ مهنة[9] ـ ويذكر آخر أنه قتل فى ـ بروجرد[10] ـ ويعين ياقوت موضعه ويطلق عليه قنديسمان، ويقول: إنها من قرى نهاوند[11]. وفى يوم مقتله قالوا: إنه ليلة السبت العاشر من رمضان[12]، وإنه فى يوم الخميس العاشر من رمضان[13]، وليلة الجمعة فى الحادى عشر منه[14]، وفى اثنتى عشر منه[15]. ثم قيل: إنه مات على أثر

(١) الذهبى ـ دول الإسلام جـ ٢ ص ٩-١٠.
(٢) ابن خلكان، الوفيات جـ ١ ص ٢٩٥ وابن الجوزى ـ المنتظم، حوادث سنة ٤٨٥هـ، وابن العبرى ـ مختصر الدول سنة ٤٨٥هـ.
(٣) ابن القلانسى ـ ذيل تاريخ دمشق ص ١٢١.
(٤) ابن الأثير ـ الكامل ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.
(٥) ابن خلكان ـ الوفيات ـ جـ ١ ص٣٩٥.
(٦) ابن خلدون ـ العبر ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.
(٧) فصل من جامع التواريخ ـ سركذشت سيدنا ص ١٧، ١٨، وفى حبيب السير «عبد الله الأوانى» ص ٣٥.
(٨) ابن خلكان جـ ١ ص ٣٩٥.
(٩) تاريخ كَزيدة.
(١٠) تجارب السلف ـ هندوشاه.
(١١) معجم البلدان جـ ٣ ص ١١٦.
(١٢) المنتظم ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ، والوفيات جـ ١ ص ٣٩٥.
(١٣) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ١٣٥ ترجمته.
(١٤) الخونسارى ـ روضات الجنات جـ١ ص ٢٢٢.
(١٥) تاريخ كَزيدة.

الطعنة وبعد حمله إلى مضربه بساعة، وقيل: بقى إلى اليوم التالى[١]، وكذلك اختلفوا فى عمره فقيل: إنه ٧٦عامًا[٢]، وإنه ٧٦ سنة وعشرة أشهر[٣]، وتسعة عشر يومًا[٤]، وإنه ٧٧سنة[٥]، وإنه ٧٨ سنة[٦]، ويبلغ به آخر إلى ٩٣ سنة[٧]، وإلى ٩٤ مؤرخ فارسى ثان[٨]، وإلى ٩٦ مؤلف ثالث كما يستنتجها من أبيات نسبت «للنظام» قالها عند وفاته[٩].

أمّا عوامل اغتياله فقد شملها الاختلاف أيضًا فأرجعها بعضهم إلى الصراع بين «النظام» وبين ملكشاه حول السيطرة والنفوذ وأعادها آخرون إلى النزاع بينه وبين الحسن الصباح بسبب الدعوة الباطنية، وأوعزها فريق ثالث إلى الخلاف بينه وبين تركان خاتون لرغبتها فى ولاية ابنها الصغير ـ محمود ـ العهد؛ ليتولى العرش بعد وفاة أبيه، ثم إلى استغلال هذه العوامل جميعًا من قِبَل ـ تاج الملك أبو الغنائم ـ طمعًا فى منصب الوزارة.

ومن هنا يتبين لنا أن قضية إغتيال «النظام» من أكبر القضايا المعقدة فى التاريخ الإسلامى وأنها وإن كانت واضحة فى بعض صفحاتها فإنها لم تزل يكتنف الغموض فصولها الأخرى.. فهى إذن كبقية قضايا جرائم القتل الكبرى تحتاج إلى تحقيق دقيق وبحث عميق، ووصف شامل لظروف الجريمة وملابساتها وعرض سريع لمقدماتها.. إذ الواقع إنه لا يمكننا التصديق بأن القاتل هو ذلك الشاب الباطنى المتنكر فى زىّ الصوفىّ دون شريك له يعينه

(١) السبكى ـ الطبقات جـ ٣ ص ١٣٥: ١٤٥.

(٢) حبيب السير ص ٣٦ مستخلص شيفر.

(٣) النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٣٦.

(٤) ابن الجوزى ـ المنتظم ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٥) السبكى جـ ١ ص ١٣٥، والذهبى ـ دول الإسلام جـ ٢ ص ٩٠.

(٦) اليافعى ـ مرآة الجنان ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٧) محمد بن النظام الحسينى :ـ العراضة فى الحكاية السلجوقية ص ٦٧.

(٨) دولتشاه ـ تذكرة الشعراء ص ٩٤.

(٩) تاريخ كزيدة ص ٤٤٨.

obeikandl.com

ويحرّضه على القيام بفعلته الشائنة، ولأن هناك عدة ظواهر تضطرنا للتساؤل والتريث قبل إبداء رأى حاسم فى كل ما قيل من آراء، أو صدر من أحكام. . فحاملوا المحفّة ـ مثلاً ـ وحرس «النظام» أين كانوا عند وقوع الحادث؟! ثمّ إن شخصية الوزير ومايحوطها من هيبة ورهبة، وكيف يمكن الهجوم عليها دون نصير؟!، ثمّ ذلك الجو المكفهر فى البلاط السلجوقى الملبّد بالشكوك فى إخلاص الوزير والسأم منه. . كل هذه تدعونا إلى الظن بأن الجريمة ليست فردية بأية حال من الأحوال، وربما أسهم فيها أولئك جميعًا، كما يجوز أن تكون المصالح المختلفة قد التقت وتضافرت على تنفيذها.

وأخيرًا فمن هو المسئول ـ كما يقول القانونيّون ـ عن مقتل الوزير إذن؟!

إن تعيين المسئول عن هذا الحادث وتحديد مقدار مسئوليته يستدعينا إيجاز الأسباب المهمّة التى مهدت لوقوعه ومناقشتها ثم ترجيح أشملها وأقواها.

لم تكن العوامل التى دفعت إلى قتل «النظام» وليدة عام ٤٨٥هـ، وإنما تنتهى إلى أبعد من ذلك بكثير إذا اعتبرنا تكتلات المنافسين للدسّ والتآمر ضد الوزير وايجاد شقّة الخلاف بينه وبين السلطان من دواعى اغتياله وهى لا ريب كذلك، فقد بدأت الشبهات تحوم حول تصرفات ـ النظام ـ كما يذكر هو نفسه منذ عهد «ألب أرسلان» بفضل عيون المغرضين التى كانت تترصد حركاته وسكناته وأصابع المرجفين التى كانت تشير إليها بأسلوب الحاقد عليه الحاسد له الطامع فى منصبه، ففى إبّان حكم سلطانه الأول هدأ تمامًا وفى أثناء الحملة التى قام بها من نيسابور لتأديب ـ قتلمش بن إسرائيل ـ عندما استولى على الرى سنة ٤٥٦هـ وبينما هو فى وادى بلخ[1]، يتفقد الجنود والقواد ويحصيهم زار الأمير ألتون تاش ــ تقديرًا لأعماله وتلبية لدعوته، فنقل الخبر إلى السلطان فى نفس اليوم، وفسرت له الجلسة تفاسير شتى على الرغم من الخلاف بين الزائر والمزور فى أمور الديوان لدرجة أنه أرسل سيفه للسلطان كما أرسل الوزير

(١) وفى أخبار الدولة السلجوقية لأبى الفوارس الحسينى ص ٣١ ـ وادى الملح (بالحاء المهملة وهى الصواب).

دواته عدة مرات بسبب هذا الخلاف، ومع ذلك فقد تغيرت نيّة السلطان تجاه وزيره تغيراً كبيراً متأثراً بقول الوشاة.[1].

وفى عهد هذا السلطان أيضًا كتب السعاة إخبارية اتهموا فيها «النظام» بكثرة مكاسبه وسوء تصرفه وضعوها على طرف مصلى السلطان، وما أن اطلع عليها حتى استدعاه وقال له: «اقرأ هذه فإن صدق كاتبوها فأصلح أعمالك وإن كذبوا فأشغل العاطل منهم بعمل واغفر للمذنب زلتّه»[2]. وبهذا نجا «النظام» من الدسيسة الثانية فى أيام سلطانه الأول ـ ألب أرسلان ـ لأنه كان واثقًا من وزيره مطمئنًا لإخلاصه وحسن تصرفه.

ولمّا لم يجد هؤلاء الأثر المأمول لوشايتهم عند السلطان اتجهوا نحو دار الخلافة، فقد ذكرت المصادر أن العميد أبا الوفا حاول أن يوقع بين فخر الدولة وزير الخليفة القائم و«النظام» وزير السلطان ملكشاه سنة ٤٦٦هـ، وقد امتلأت نفسه غيظًا لما سمع وكتب بإقطاع بعض ضياع الخليفة للغز[3] فى وقت كانت الصلة بينهما حسنة قبل ذلك بقليل حتى إنه عزل ـ آيتكين السليمانى ـ من أتباعه ومريديه وعيّن بدله سعد الدولة كوهرائين ـ لشحنة[4] بغداد تحقيقًا لرغبة الخليفة[5]، حيث لم يكن خافيًا على «النظام» ما كان يجرى هناك من أعمال يستهجنها وتقولات يستنكرها. لذلك لم يكن راضيًا عن الخليفة كل الرضا وإن كان معتقداً بضرورة الخلافة كنظام للحكم تتمثل فيه السلطة الروحية الدينية.

ومرت السنون وجلس على العرش ملكشاه وحبائل الخصوم تحاك للإيقاع به تظهر حينًا وتختفى آخر من غير هوادة ولا انقطاع، فلم يكتف خصومه هذه المرّة باختلاق الأكاذيب عليه والوشاية به إلى السلطان وإنما أخذوا يتفنّون فى

(١) الوصايا ص ٢١.

(٢) أبو الفوارس الحسينى ص ٣٠.

(٣) سبط بن الجوزى ـ حوادث سنة ٤٦٦هـ.

(٤) ابن الأثير ـ الكامل ـ حوادث سنة ٤٦٦هـ.

(٥) ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ٨ ص ٢٨٤.

وسائل إلحاق الضرر بأتباعه بغية إيذائه وخلق الجفوة بينه وبين سلطانه. ففى عام ٤٧٢هـ سعى ـ خمارتكين ـ الشرابى بابن علان اليهودى ضامن البصرة إلى السلطان وأطمعه فى ثروته فأمر بالقبض عليه وقتله ومصادرة أربعمائة ألف دينار من ذخائره فى أثناء مروره بالأهواز للصيد. وما أن عرف «النظام» بذلك حتى بلغ به الغضب أن احتجب فى داره وأغلق بابه ثلاثة أيام، وما أن عاد السلطان إلى أصفهان حتى دعاه الوزير وعاتبه عتابًا مرًا فردّ عليه بما طيّب نفسه[١]، ولكن «النظام» لم يترك واشيه فلم يمر بعض الوقت حتى عزله من منصبه.

غير أن كاتبه ـ خمارتكين ـ وصاحبه وأثير السلطان فى تلك الفترة ـ ابن بِهمنيْار ـ اغتنم فرصة استيلائه على السلطان وتقرّبه منه أن تكلم فى حق ـ «النظام» وأفهمه باختلاس أموال الدولة وصرفها فى صالحه، ولم يقتنع بذلك بل كان أكثر جرأة من صاحبه.إذ حاول أن يدسّ السم فى قرصين يقدمهما إليه على يد رجل صوفى، وصدّق «النظام» بأنهما بقية طعام أحد الزهّاد كما قيل له وتناولهما ليأكل منها لولا أن منعه أحد الصوفية الحاضرين عنده. ولما ثبت له ذلك بالتجربة شكا أمره إلى السلطان فكحل المتكلم وكفى «النظام» أمره[٢].

ولئن كان الفوز حليف «النظام» فى هذه المآزق المتكررة وكان يخرج منها ظافرًا منتصرًا إلاّ أنه فوز القوى الذى يفرض نفسه بإمكانات ومساندة طبقات الشعب المختلفة له. أمّا فى البلاط فقد كانت منزلته فى هبوط واستياء السلطان منه يتضاعف كلما مرت الشهور إلاّ أنه لم يجد للتنفيس عن مبلغ سخطه من الوزير طريقًا غير التغاضى أو التشجيع على المؤامرات قبل حدوثها وهى لم تفلح. وبلغ من إصغائه للوشاة ضده واستخفافه بمكانته أن يسمح للمهرج ـ جعفرك ـ بأن يقلّد الوزير ويسخر فى تمثيل أحواله ليضحك الحضور فى مجلسه حتى طرق الخبر مسامع «جمال الملك بن النظام» وكان يومذاك واليًا على بلخ، فجاء مسرعًا إلى أصفهان سنة ٤٧٥هـ ودخل على السلطان فوجد ـ جعفرك ـ

(١) المصدر السابق جـ ٨ ص ٢٢٢، وابن الأثير ـ الكامل ـ حوادث سنة ٤٧٢هـ.

(٢) المصدر السابق ـ حوادث سنة ٤٧٤هـ، وابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ٤٧ ـ حوادث العام نفسه.

يضاحكه ويضحك الجالسين فى حضرته، ولما تبين له صحة ما سمع أمر بإلقاء القبض عليه وإخراج لسانه من قفاه وقطعه إلى أن مات.. ولكن السلطان أضمرها له فلم يصل إلى نيسابور حتى طلب من عميد خراسان أن يحتال فى قتله، فقدّم له السمّ فى ـ الفقاع ـ على يد أحد خدّامه ولمّا مات عزّى السلطان والد المتوفى بقوله: «أنا ابنك وأنت أولى من صبر واحتسب»[1]، فلم يجد الوزير بدّا من الصبر على مضض، ولكن ظروف الحادث وصيغة التعزية لا تخفى دلالتها على شخص كـ«النظام» فكتم ألمه وحزنه فى أعماق نفسه وواصل السير لتأدية رسالته وانتهاج سياسته.

ولم يمض على ذلك أعوام ثلاثة عام ٤٧٦هـ حتى جرأ سيد الرؤساء ـ أبو المحاسن معين الملك بن أبى الرضا كمال الدولة ـ من أكابر ندمان السلطان وزوج ابنة «النظام»، أن يصارح ملكشاه بضمان الوزير بألف ألف دينار فلم يكن منه بعد أن بلغه الخبر إلاّ أن أعدّ مائدة فخمة دعا إليها السلطان وحاشيته وأحضر غلمانه من المماليك والأتراك على خيولهم. وما أن خلا به حتى عرض عليه ما سمعه وقال له: صحيح ما بلغك أنى أقتطع عشر أموالك ولكنى أصرفه على هذا العسكر الذى بين يديك، وقدّم له قائمة بذلك.. ثم قال: «فإن شئت تأمر بنقلهم إلى من تشاء من حجّابك لأستريح من أموالهم ومتاعبهم. أمّا أنا فقد خدمت أباك وجدك من قبلك ولى حق خدمة ولكنى مشفق فى مضيّك على ما أنت عليه وخائف من عقبى ما أنت خائض فيه، ومع ذلك فأنى أكتفى بمرقعة وزاوية، وأموالى جميعها تحت تصرفك»[2].

وما أن شعر باطمئنان السلطان لكلامه حتى أبدى استياءه لهذه الأخبار الكاذبة عنه.. وامتعاضه من مروّجيها وناشريها. فلم يكن من السلطان إلاّ أن تظاهر بثقته فى وزيره وأصدر أمره بالقبض على أبى المحاسن وسمل عينيه،

(١) ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٠ ص ٤٣، والبندارى ص ٦٨.

(٢) ابن الجوزى ـ حوادث سنة ٤٧٦هـ جـ ٩ ص ٦.

ونفيه إلى السجن فى سأوه، التى بقى فيها إلى أن قتل سنة ٤٧٦هـ/ ١٠٨٣م. وهرع أبوه ـ كمال الملك ـ صاحب ديوان الإنشاء والطغراء إلى دار «النظام» مستنكرًا صنيع ابنه ومستنجدًا به وعرض عليه مائتى ألف دينار هبة للخزينة فقبلها منه بعد أن عزله من منصبه وعيّن ابنه ـ مؤيد الملك ـ بدلاً عنه[١].

وكانت تصرفات أبناء «النظام» نتيجة لغرورهم وشعورهم بمركز أبيهم فى الدولة مما أزاد فى مشكلاته، ووجد فيها المغرضون ثغرة يمكن النفاذ منها إلى قلب السلطان وإشعال نار الكراهية والحقد فى أعماقه.. فإنه ما أن تمّ تعيين مؤيد الملك فى ديوان الإنشاء حتى سحب يد ـ أبى المختار الزوزنى ـ الأديب وعيّن مكانه ـ إسماعيل الأصبهانى ـ فذهب المعزول بعد أن ضاقت به الحيل شاكيًا أمره إلى السلطان الذى لمعرفته بقدمه وإخلاصه وفضله فقد أمر بإعادته وأرسله مع قاضيه ـ المظفر ـ إلى مؤيد الملك برسالة شفوية لإعادته، فلم يكن منه إلاّ الاعتذار بدعوى أنه حلف ألاّ يعطيه أية عمل، وأنه لو خالف يمينه للزمه الحنث.. وكلما حاول اقناعه بخطأ تصرفه لم يكترث.. فلمّا سمع السلطان بردّه غضب وأصدر أمرًا بتعيين أبى المختار رئيسًا للديوان مكان مؤيد الملك، وأهداه لقب ـ كمال الملك ـ واعتبر هذا أول حادث لتدخل السلطان فى أعمال «النظام»[٢].

ومما يلاحظ على «النظام» فى أخريات أيامه سعيه فى تعيين أبنائه فى المراكز الخطيرة وإعطائهم الولايات المهمة.. ومن الجائز أن يكون دافعه إلى ذلك الاطمئنان إليهم، وليس حنان الأبوة فقط حيث لم يجد من يثق به أحسن منهم، بخاصة حينما أخذت مؤامرات إزالته بل القضاء عليه تنكشف له بين يوم وآخر كما ادعى ذلك هو نفسه فى وصاياه[٣]. وقد اتخذ المناوئون من عمله هذا وسيلة للنيل منه والقدح فى نواياه وسوء إدارته ـ وكانت ـ تركان خاتون ـ

(١) ابن الأثير ـ حوادث سنة ٤٧٦هـ، وطبقات الشافعية للسبكى جـ ٣ ص ١٤٢، والبندارى ص ٥٧.

(٢) محمد عبد الرزاق ـ حياة «النظام» ص ١٦٨.

(٣) الوصايا ـ كتاب بندنامة.

حظية السلطان التى تزوجها عام ٤٧١هـ/١٠٧٨م من أوائل الذين استغلوا ذلك، وأخذت تشنّع عليه أمام السلطان بأنه أصبح يستأثر بالسلطة كلها ويوزّعها بين أبنائه الاثنى عشر ويولّيهم على البلاد كأنهم الاثنى عشر إمامًا، ويستبدّ بأموال الخزينة ويصرفها كيف يشاء على المقربين إليه، وكان السبب فى عدائها له، أنه كان يرى أن تكون ولاية العهد لأكبر أولاد السلطان سنّا وأكثرهم خبرة وتمكنًا بغضّ النظر عن أمهاتهم وكان يجد هذا الشرط الأساسى متوفرًا فى ابنه ـ بركيارق ـ من زبيدة السلجوقية. بينما كانت تريد أن يكون ابنها ـ محمود ـ البالغ من العمر خمس سنوات وارثًا لعرش أبيه، فحملت «للنظام» البغضاء والكراهية وصارت تعمل لإيجاد الجفوة بين السلطان ووزيره معتمدة فى مساعدتها على مشيرها ـ تاج الملك أبو الغنائم ـ الذى فوّض إليه عدة وظائف منها أمر الخزانة ودور الحريم وديوان الطغراء والإنشاء[١].

وقد اغتنم أبو الغنائم هذه الفرصة وطابت لها نفسه، فأخذ يعمل لإيقاد نار الفتنة بين الوزير وسلطانه ويسعى لتوسيع شقة الخلاف بينهما لأن فى إقصاء «نظام الملك» عن الوزارة أمل أكيد لأن يحلّ محله بعد أن رضيت عنه زوجة السلطان المعروفة بنفوذها القوى وتسلطها على إرادة زوجها فكان من جملة سعايته أن قال له يومًا: «إن «النظام» ينفق فى كل سنة على الفقهاء والصوفية و قراء ثلثمائة ألف دينار[٢]. ولو صرف هذا المال على جيش لرفع رايته على أسوار القسطنطينية» فاستجوب السلطان وزيره فقال له: «يابنى أنا شيخ أعجمى لو نودى علىّ لما زادت قيمتى على ثلاثة دنانير، وأنت تركى لتلك تبلغ المائة دينار[٣].. وقد أنعم اللّه عليك وعلىّ بواسطتك ما لم يعطه أحدًا من خلقه،

(١) هندوشاه ـ تجارب السلف ص ١٩، ٢٠، والبندارى ص ٥٨، وابن الأثير ـ الكامل، حوادث سنة ٤٨٩هـ.

(٢) الطرطوشى ـ سراج الملوك ستمائة ألف دينار فى كل سنة ص ٢٢٧هـ.

(٣) فى سراج الملوك خمسة دنانير.. وثلاثين دينارًا بدلا من ثلاثة ومائة سنة ٣٣٧ - ٣٣٩هـ.

أفلا تعوّضه عن ذلك فى حَملةَ دينه وَحفَظة كتابه بثلثمائة ألف دينار.. ثم أنك تنفق على الجيوش المحاربة فى كل سنة أضعاف هذا المال مع أن أقواهم وأرماهم لا تبلغ رميته ميلاً، ولا يضرب سيفه إلاّ ما قرب منه. وأنا أقمت لك بهذا المال جيشًا يسمى ـ جيش الليل ـ قام بالدعاء إذا نامتْ جيوشك، ومدّوا إلى اللّه أكفهم وأرسلوا دموعهم فتصل من دعائهم سهام[1] إلى العرش لا يحجبها شيء عن اللّه، فأنت وجيوشك فى خفارتهم تعيشون وبدعائهم تثبتون وببركاتهم ترزقون».. فبكى السلطان وقال: «شا باش يا أبت شا باش، استكثر من هذا الجيش»[2].

وقصة جيش الليل هذه حكاها كثير من المؤرخين القدامى والمتأخرين، ورواها لنا مؤلف معاصر «للنظام» نشأ فى الأندلس وتعلّم على أساتذتها ثم رحل إلى الشرق فى سبيل العلم ودخل بغداد بعد موت «النظام» بأعوام قلائل، وعدّ هذه القصة من أجلّ مناقبه، وأثنى على صاحبها الثناء الذى لا نظير له، وغالى فى إطرائه بالنثر السلس المسجوع ما يعجز عنه الشعر المصنوع والمطبوع، فممّا قال عنه فى هذا الصدد: «إنه لم يكن حامل علم أو طالبه أو زاهد فى زاوية إلاّ وكرامته شاملة له وسابغة عليه، وكان الذى يخرج من بيوت أمواله فى هذه الأبواب ستمائة ألف دينار فى كل سنة»[3].

وإذا لم يستطع جيش الليل أن يحمل السلاح ويشارك فى الحرب فإنه

(١) ورد هذا التعبير مضافًا ـ أى سهام السحر ـ ضمن كلمة قالها أحد مشايخ بغداد للمعتصم شاكيًا ظلم الأتراك «جاورتنا مدة فرأيناك شر جار، جئتنا بهؤلاء العوام من غلمانك الأتراك فأكتتهم بيتًا فأيتمت بهم صبياننا وأرملت نساءنا والله لنقاتلك بسهام السحر (يعنى الدعاء)».. وكان من أجل ذلك بنى مدينة «سامراء» لما استكثر من المماليك حتى ضاقت بهم بغداد وتأذى بهم الناس وتعرضوا بالنساء فكان فى كل يوم يقتل منهم جماعة (الفخرى ص ٢١١).

(٢) الحسينى أبو الفوارس ـ أخبار الدولة السلجوقية ص ٦٦، ٦٧.

(٣) الطرطوشى ـ سراج الملوك ص ٢٣٧-٢٣٩، ونقل هذه الحكاية مع تصرف يسير: النهروانى فى كتابه الإعلام فى أعلام بيت اللّه الحرام ص ١٧٥-١٧٧ عن كتاب «وصل الحبيب ونديم اللبيب». لم يذكر مؤلفه.

ـ ولاشك ـ كان يومذاك جيشًا كثيفًا وقف صابرًا محتسبًا أمام كوارث الطبيعة ومصاعب الحياة بجنان ثابت وإليه يعود الفضل فى تهدئة الرأى العام والدعوة «للنظام»، ومنه يتألف الرعيل الأول من كتائب الدعاة للجهاد فى سبيل اللّه عند المحنة.

ولم يضعف المنافس الجديد من جرّاء خذلانه فى هذه الشائعة التى أرجف بها أمام السلطام ولم يستطع نكرانها أمام الوزير وإنما أخذ يسعى حثيثًا وبتؤدة ورفق لئلا ينكشف أمره مرّة أخرى فتحلّ به الكارثة التى نزلت بأمثاله قبله، فكان يمزج فى تودده للسلطان وإظهار ولائه واحترامه للوزير لينطلى هذا الملك المزيف عليه إلى أن استطاع أن يضم إلى حزبه من كبار الموظفين «مجد الملك القمى» صاحب ديوان الزمام والإستيفاء، وجبر الدولة الأردستانى صاحب ديوان الرسائل ونائبه على ديوان الإنشاء، وسديد الملك العارض صاحب ديوان الخبر[1]. وأخذ يضرب معهم على نفس الوتر الذى وضعته «تركان خاتون» ويرددون جميعًا نفس النغم على مسامع السلطان وأنه حَسبَ المملكة إرثًا له فقسّمها بين أولاده وصدّ كل معارضة[2] حتى امتلأ حقدًا وشكًّا فى وزيره.

وكان مما ساعد على هذا وعلى تحقيق خطة هؤلاء وأثارت نوازع السلطان الكامنة أن صادف إنفاذ أحد أمراء مماليكه ـ قودن ـ إلى عثمان بن «نظام الملك»[3] حاكم مرو آنذاك. فحدث بينهما خلاف أدّى بالوالى إلى سجنه ثم أطلقه فعاد إلى السلطان شاكيًا فلم يستطع حينئذٍ كتم غضبه وغيظه وأرسل تاج الملك على رأس وفد إلى «النظام» يحمل رسالة شفهية باطنها التهديد وظاهرها العتب الشديد يقول فيها: «إن كنت شريكى فى الملك فلذلك حكم، وإن كنت تابعى فيجب أن تلزم حدّك، وهؤلاء أولادك قد استولوا على الدنيا، ولا يقنعهم حتى يخرجوا من الحرمة».. فلمّا أبلغوه ثار ولم يطق كتمان غضبه

---

(١) البندارى ص ٥٨، ٥٩.

(٢) العراضة ص ٦٥، وجيب السير ص ٣٥ من مستخلص شيفر كزيدة ص ٤٤٧.

(٣) المنتظم جـ ٩ ص ٦٤-٦٨.

وما تضطرب من هواجس فى أعماق نفسه فأجابهم قولوا له: «أما علم أنى شريكه فى الملك، وأنه ما بلغ ما بلغ إلاّ بتدبيرى، أو ما يذكر حين قتل أبوه كيف جمعت الناس عليه وعبرت بالعساكر النهر وفتحت الأمصار، وصار الملك بحسن تدبيرى بين راج الرأفة ووجل من المخافة.. فلمّا قدمت الأمور إليه، وجمعت الكلمة عليه وفتحت له الأمصار القريبة والبعيدة وإطاعة الدانى والقاصى أقبل يتجنّى لى الذنوب ويسمع فىّ السعايات، وبعد هذا قولوا له: إن ثبات تاجك مغدوق بفتح هذه الدواة ومتى أطبقت هذه زال ذاك[1]. وإن اتفاقهما رباط كل رغيبة، وسبب كل غنيمة فإن عزم على التغيير فليتزوّد بالاحتياط قبل وقوعه. وليأخذ الحذر من الحادث قبل طروقه». ثم قال: «قولوا له عنى مهما أردتم فقد أهمنى ما لحقنى من توبيخه وفتّ فى عضدى[2]. فأنا شيخ كبير وقد قاربت شمس الغروب ولم يبق لى غرض فى الدنيا لعلمى بقرب مفارقتها». ولمّا حكى للسلطان ما بدر على لسان وزيّره أخذ يدبر عليه، وتواطأ مع ـ تاج الملك ـ على قتله[3].

فى هذا الوقت العصيب وقد تألب عليه رجال البلاط وسيدهم وأحاطت به المشكلات السياسية فلا يجد لها حلاً، ولا يرى منها مفرّا، كان ابن الصبّاح يسعى كذلك للتخلص من «النظام» إذ سدّ عليه المسالك[4]، وضيّق على صحبه ومريديه سبل العيش، وكانت جنوده تحيط بقلعة «ألموت» على وشك فتحها والقضاء على زعيمها..وكان من قبل قد فتح المدارس وشجع التأليف لمكافحة دعوته وهو الذى سعى لمغادرته البلاط السلجوقى وسخط السلطان عليه.

(١) فى مختصر تاريخ الدول: عثمان بن جمال الملك الذى عيّنه جده أميراً على مرو

(٢) ابن الأثير ـ الكامل جـ ١٢ ص ٨٤-٨٦، وتجارب السلف ص ١٧٠ المستخلص، والعراضة ص ٦٦، وتاريخ كزيدة ص ٤٤٧.

(٣) ابن الجوزى وابن الأثير ـ حوادث سنة ٤٨٤، ٤٨٥هـ، وابن خلكان جـ ١٤ ص ٣٩٥، واليافعى ـ مرآة الجنان جـ ٣ ص ١٣٥، وابن العبرى ـ مختصر الدول ص ٢٣٥-٢٣٨.

(٤) سبط بن الجوزى ـ مرآة الزمان ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

وبهذا التقت ضغائن القوم وخططهم على صعيد واحد. . فالسلطان قد سئمه وارتاب فى تصرفاته، وطمعه فى نفوذ الخلافة يتزايد، وزوجته ـ تركان خاتون ـ ترى من الضرورى تنحيته ليخلو لها الجو من المعارضة على تعيين ابنها وليّا للعهد وخلفًا للوالد على العرش، وتاج الملك يتلهف للصعود إلى سلم المجد والجاه ولو كان على أشلاء الشيخ المتداعية، ولا يراه إلاّ فى كرسى الوزارة الذى يحتله «النظام» منذ ثلاثين عامًا أو تزيد. ثم «الحسن بن الصبّاح» وقد ضاقت به السبل فلا يجد منجاة إلاّ بالخلاص من «النظام» ولو كان هذا بإراقة دمه وإزهاق نفوس الأبرياء معه.

وفى هذه الظروف الراهنة كان «النظام» ـ كما تروى المصادر الوثيقة ـ مصابًا بالنقرس داء الملوك وأهل النعم[1]. وكان هذا المرض قد لازمه مدة طويلة واشتدّ عليه فى أخريات أيامه، ففى سنة ٤٦٨هـ خرج إليه من بغداد ابنه- مؤيد الملك يعوده ومعه البيضاوى رسولاً من الديوان[2]. وفى أواخر سنة ٤٨٤هـ مرض وهو فى بغداد وعالج نفسه بالصدقة على الفقراء والمساكين وتصدّق عنه الأعيان والأمراء فعوفى وأرسل إليه الخليفة خلعًا نفيسة[3]. ولم يبارحه المرض إلى عام وفاته حتى اضطره للتخلف عن ركب السلطان قليلاً.

ولا نعرف أحدًا من المؤرخين أشار إلى مرض لازمه غيره، وأنه ـ من غير شك ـ مرض له نتائجه فى تصرفات الوزير كلمّا تقدمت به السن، وكان من آثاره تلك الثورة النفسية التى لم يقدر على كبتها أو تهدئتها أمام أعدائه.

وكان لاستفحال المرض وشدة وطأته ثم لشيخوخته وجزعه لما يشاهد من أعمال فى المملكة تخالف رغبته فقد تحطم جسمه وأخذ يحس بالأجلّ يدنو منه، وأنه ساع إليه، ولئن كنّا ـ حتى اليوم ـ لاندرك سرّ هذا التحس بالموت قبل حلوله، ولكن التاريخ سجّله لبعض أعاظم الرجال، كما أثبته لوزيرنا «النظام» وقد رويت لنا فى هذا الشأن نصوص:

---

(١) وورد هذا المعنى بين الشعراء (وشاع استعماله حتى اشتقّوا منه الفعل تنقرس بمعنى أثرى).

(٢) ابن تغرى بردى ـ النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٠٠.

(٣) ابن الأثير – الكامل جـ ١٠ ص ٨٢.

أ - ما أشار به إلى ذلك وهو يقدّم كتابه ـ سياستنامة إلى الخطّاط على جناح السفر إلى بغداد فى أواخر شعبان سنة ٤٨٥هـ. وقد عدّها براون نبوءة غريبة جاءت فى خاتمة رسالته[١]، لأنها قد حصلت وغدت حقيقة واقعة بعد أن كان يخيل لسامعها أنها كلمة عابرة.

ب - ما ذكره فى «وصاياه» عندما توجه السلطان من أصبهان إلى بغداد سنة ٤٨٥هـ حينما تخلف هو لمرض كان قد ألمّ به وطلب بيانًا بالأموال التى يجب أن تصرف على المستحقين وهل صرفت أم لا فظهر له أنها قد تعطلت فتذكّر حديث الشيخ ـ أبى سعيد ـ فى مهنة ـ وهو أن علامة انصرام دولتك بانقطاع الأرزاق عن أصحابها، فعلم أن زوال ملكه قد حان، وميعاد وفاته قد أوشك. وحينئذٍ استدعى حضور ابنه فخر الملك وأوصاه، ويزعم جامع الوصايا أن هذه الحكايةَ مدوّنة فى كتب التاريخ ومشهورة لدى المؤرخين[٢].

جـ - ما حكاه لنا ـ العروضى ـ فى صدد حديثه عن المنجمين ورصد طوالع المواليد وأحكام المنجمين الصائبة.. أن «النظام» أعفى منجمه ـ الحكيم الموصلى ـ حينما بلغ أرذل العمر، وطلب إليه أن يبعث فى كل عام تقويمًا وتحويلاً، ثم رجاه أن ينظر متى يحلّ به القضاء، وتفيض روحه إلى السماء، فأجابه الحكيم: «بعد وفاتى بستة أشهر».. واستقر الموصلى فى نيسابور و«النظام» يغدق عليه برّه وخيره ويسأل عنه كل غادٍ وآت.. إلى أن حلّت سنة ٤٨٥هـ وجاء قادم فسأله عنه فقال: «ليبقى صدر الإسلام وارثًا للأعمار، لقد مات الموصلى فى نصف ربيع الأول»، فانتبه «النظام» وأعاد النظر فى أعماله وكتب وصيته ووفّى ديونه، وحرّر عنه من عبيده وبقى ينتظر الموت حتى استشهد فى رمضان على يد تلك الجماعة الصبّاحية أنار اللّه برهانه وأسبغ عليه رضوانه[٣]، وكان عمره آنذاك مابين ٧٥، ٧٧ عامًا.

(١) براون ـ أدب الفرس ص ١١٢.

(٢) الوصايا ص ٩.

(٣) نظامى العروضى ـ جهار مقالة ص ٦٨ (ترجمة عزّام والخشّاب).

ومهما قيل عن المرض الذى كان يعانيه، وذكر أمارات ودلائل فى موته، وتكهنه بنهاية حياته فإن الخطة قد أحكمت هذه المرّة واغتيل «النظام» قبل وصوله بغداد على يد ذلك الصبى الباطنى وكان من ورائه زعيمه وملقّنه ومدربه «الحسن بن الصبّاح»، وكان وراء الحسن محرّضه ومشجّعه تاج الملك[١]، وكان من وراء هؤلاء الثلاثة السلطان ملكشاه وزوجته إذ كان لكل واحد منهم غرض لا يتحقق: إلاّ بمقتله، وبذلك اشترك فى مؤامرة اغتياله كما نرجّح حسب إدانتهم: تاج الملك، فالحسن الصباح، ثم السلطان ملكشاه، فتركان خاتون[٢]. . لأنهم بعد التشاور والمفاوضة انتهوا إلى وضع تلك الخطة لقتله.

فقد عرف الأول أن بلوغ أمنيته لا يكون إلاّ بالصعود على أكتاف ذلك العجوز الداهية، وأنه إن بقى فى الحياة فسيفتضح أمره ويكون القتل مصيره، إذ السلطان لا يجرؤ أن يعلن بغضاءه ومشاركته معهم، ولأن الجنود وغيرهم يميلون إلى «النظام»، فضلاً عن قدرته واضطلاعه فى المهمات فلابد وأن يجهز عليه سريعًا قبل فوات الفرصة وشاع هذا بين الناس والنظامية حتى هجم على قاتله غلمان «النظام» فقطّعوه إربًا فى ذى الحجة من هذه السنة[٣]. وممن يؤكد هذا من أقدم المؤرّخين ـ أبو بكر المعافرى ـ فى «عواصمه» حيث يذهب إلى أنه قتل على يد التاجية، وأن تاج الملك كان باطنيًا[٤].

وقد علم الثانى أى الحسن بن الصبّاح أنه لا يمكن لدعوته أن تتم وتنتشر إلاّ بهلاك خصمه العنيد الذى لا يعرف الرحمة والمواربة تجاه المبادئ الخبيثة الهادمة والخارجين على الدولة. والذى ضيّق عليه الخناق فلا يجد له متنفسًا ولا مهربًا، فليس بدّ من المسارعة لاغتياله قبل أن تنهدّ قلعته عليه وعلى أتباعه، خصوصًا وأن سلطانه قد عزم على غزو مصر الفاطمية هذا العام بوحى منه.

---

(١) العراضة ص ٧٦، وحبيب السير ص ٣٦ مستخلص شيفر.

(٢) انظر: ترجمتها فى المنتظم جـ ٩، وفى حوادث ٥١٥هـ.

(٣) المنتظم ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ جـ ٩ ص ٧٤.

(٤) المعافرى: العواصم ص ٧٣.

ومما يعزّز هذا ما اشتهر به الباطنية من حوادث الاغتيال وتنظيم فرق الفدوية للقضاء على كل من يقف فى طريقهم لاسيما كبار الرجال أمثال الخلفاء والوزراء وبنفس الأسلوب الذى اغتيل به «النظام»، وبقيت هذه الطريقة سائدة إلى ما بعد قتلهم «النظام» بأجيال. . فقد ذكروا أن مسعود السلجوقى واطأ الباطنية على قتل ـ الخليفة المسترشد بالله لأنه خافه[1]، وأنه بينما كان عضد الدين أبو الفرح محمد بن رئيس الرؤساء وزير الخليفة المستضىء بالله فى محلة ـ قطفتا ـ وهو يستعد للحجّ، إذا برجل ينادى «يا مولانا، مظلوم، مظلوم» وناوله قصة ـ ظلامة ـ فتناولها الوزير منه، فوثب عليه وضربه بسكين فى ترقوته[2]. وهكذا كان الباطنية بعد مقتلهم «للنظام» يرددون: «قتل منا نجارًا فقتلنا به وزيرًا»[3]. وممن يؤيد هذا من المؤرّخين: ابن الجوزى وابن الأثير والسبكى[4].

أمّا السلطان ملكشاه فقد كان يضمر فى دخيلته شيئًا إدًّا وقد أعدّ له عدّته منذ شهور وهو فى زورته الثانية لبغداد سنة ٤٨٤هـ حيث دخلها فى رمضان من هذا العام وبقى فيها حتى شهر ربيع الأول قام أثناءها بجولات وزيارات استطلاعية وأمر ببناء سوق المدينة ببغداد والجامع، وشجّع «النظام» هذه الحركة العمرانية حيث استأجر بستان الجسر[5] وما يليه من وقوف المارستان مدة خمسين عامًا، وأهدى له أبو الحسن الهروى خانه. وتولى عمارة ذلك أبو سعد ابن سمحا اليهودى الذى قتل بعد اغتيال «النظام» فى نفس العام وبنَتْ تركان خاتون دار الضرب. واشترى منافسه تاج الملك ـ دار الهُمام ـ وما يليها بقصر بنى المأمون ودار خُتْلُغْ أمير الحاج وبنى جميع ذلك دارًا وتولى عمارتها الرئيس

(١) الفخرى ص ٢٧١.
(٢) نفس المصدر ص ٢٨٦.
(٣) المنتظم.
(٤) الكامل جـ ١٠ ص ١٣٠-١٣٣، والسبكى جـ ١ ص ١٤٢.
(٥) ولعلها «الخس» التى لازال يطلق على موضعها هذا الاسم فى الباب الشرقى من جانب الرصافة وليسترانج ص ٧٥ ، ٧٦.

أبو طاهر بن الأصباغى[1]. ثم صحب السلطان معه حفيده أبا الفضل جعفر ابن المقتدى واتجه نحو أصفهان ولم يستقربه المقام خمسة أشهر ونصف فى أصفهان حتى همَّ راجعًا إلى بغداد فى مستهل رمضان من العام التالى سنة ٤٨٥هـ، وذلك لتنفيذ ما كان يضمره من تغيير ولى عهد الخلافة وتعيين حفيده جعفرا، وتشعيث أمر الخليفة ـ المقتدى[2] ـ لتجتمع الخلافة والسلطنة فى آل سلجوق وهو يعلم تمامًا أن «النظام» لايوافقه على رأيه[3]، بل ربما يضع العراقيل فى طريق الوصول إليه فلم يكن بدّ من معاجلة «النظام» قبل إحباط المؤامرة وافتضاح السرّ، وقبل دخوله بغداد لتنفيذ رغبته..

ومما يسند هذا ـ فضلاً عما سبق ـ ويثبت مشاركة السلطان فى مقتل وزيره أولاً ما روى عنه أنه قد أفسد عقيدته بالباطنية[4]، وبذلك أصبح يميل إلى البواطن بعد تأثره بمبادئهم وأن السفارة بينهما كانت مستمرة حتى قيل: إن السفير ـ أبو طاهر الإيوانى ـ هو قاتله[5]، ثم تلك الشائعة التى سرت بين الناس وترددت على ألسنة شعراء الفرس[6] حتى أدت إلى موت السلطان عقب وصوله بغداد وإعلان نواياه نحو الخليفة وموته ميتة غامضة بعد خمسة وثلاثين يومًا على اغتيال وزيره «النظام» وفى نفس اليوم الذى حدده للاحتفال ـ بتاج الملك ـ وزيرًا له، ودفن فى وجوم وصمت فى الشونيزة دون أن يصلى عليه[7].

---

(١) المنتظم ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٢) نفس المصدر ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٣) نفس المصدر ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٤) نكارستان ص ١٧٤-١٨٧، وسركذشت سيدنا ص ١٧ ، ١٨ فصل من جامع التواريخ.

(٥) نكارستان ص ١٧٤-١٨٧، وسركذشت سيدنا ص ١٧ ، ١٨ فصل من جامع التواريخ.

(٦) معزّى شاعر البلاط السلجوقى يقول:

مردمان كفتن شوريد، لست جه عجب — بود أزاين معنى دل معنى شناسان راخبر

فواعجبا لقول الناس أن شوال مضطرب — ففى قلوب العارفين خبر لذلك المعنى

(٧) تجارب السلف ص ٢٠ مستخلص شيفر.

وما كانت تركان خاتون[1] أقل حماسًا وملاحقة لتنفيذ خطة الفتك «بالنظام» تحقيقا لمأربها، وهذا مما أحسّ به «النظام» وأشار إليه فى وصاياه وكتابه السياسة[2]. فإن مجرى الحوادث التى وقعت بين أبناء السلطان ملكشاه على إثر وفاته وبخاصة الجيش الذى قادته والتضحيات المالية التى سخت بها والمواعيد المغرية التى قدّمتها للأمير «قطب الدين إسماعيل الياقوتى»[3]. . كل ذلك يدلنا على مقدار تحمسها لنقل العرش إلى ولدها محمود مهما كلفها الأمر ومدى مشاركتها فى قضية اغتيال الوزير. . ولولا مدد المماليك النظامية وانحيّازهم إلى «بركيارق» لصار الأمر لابنها كما أرادت.

عجائب الأقدار :

ويذكرنا موقف تركان خاتون هذا بموقف السيدة زبيدة زوجة الرشيد من وزيره ـ جعفر البرمكى ـ وسعايتها للوقيعة بين الخليفة وبينه، الأمر الذى كانت به نهاية جعفر وخاتمة البرامكة. . ومن طريف المشابهات أيضًا أن يختلف الناس فى سبب نكبة البرامكة ومشاركة الخليفة فيها كما اختلفوا فى أسباب اغتيال «النظام» ومساهمة السلطان فى إيجادها. . وأطرف منه فى وجوه الشبه أن يتردد القول على ألسنة المؤرخين بأنهم قبضوا على ناصية الأمور كلها وزاحّموا الخليفة فى إدارتها وتصرفوا فى أموال الدولة دون رقيب[4] مثلما كان يشيِّع المغرضون ضد «النظام» ويشون بإسرافه وبذخه إلى السلطان حتى أوغروا صدره. . ومن ناحية الصراع على وراثة العرش فإن تركان خاتون أم محمود خاقانية من خانات تركستان كخيزران أم المأمون فإنها فارسية، فى حين أن

(١) المنتظم جـ ٩ ص ٦٩-٧٤ ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٢) يروى صاحب تاريخ كزيدة أن السلطان ملكشاه تزوجها عندما حاصر مدينة سمرقند واستولى عليها سنة ٤٧١هـ وأسر سليمان خان. وهى تركان خاتون بنت طغماح خان بن بغرا خان بن إيلم خان. ص ٢١٨ بند ٢٩١.

(٣) الوصايا، وسياستنامة ـ فصل الألقاب.

(٤) خال ـ بركيارف ـ وقد وعدته بالزواج منه إذا ما حارب بركيارق ولكنه أسر (ياقوتى بالقرب من الكرخ وقتله سنة ٤٨٦هـ. تاريخ كزيدة جـ ١ ص ٤٥٠).

زبيدة بنت ياقوتى بن داود أم بركيارق هى بنت عم السلطان كزبيدة أم الأمين فإنها بنت جعفر بن المنصور عباسية. ومن غريب المصادفات بعد طرائفها أن الرشيد كان إذا حدّث وزيره يحيى يخاطبه: يا أبى[1] كما كان السلطان ملكشاه إذا أراد الحديث مع وزيره «النظام».. وأنه يروى عن الرشيد قبيل نكبته بالبرامكة كان يردد: «لقد استبدّ يحيى بالأمر دونى، فالخلافة فى الحقيقة له وليس لى منها إلاّ اسمها فقط» كما كان يقول السلطان ملكشاه[2].. ومن الغريب أن يستغل الفضل بن الربيع مركزه فى الحجابة ويلعب دورًا كبيرًا فى إنزال كارثة الاغتيال بجعفر ليظفر بالوزارة[3]، كما وقع لتاج الملك ضد «النظام». ثم إن الموت لم يمهل الخليفة الرشيد بعد نكبته بالبرامكة، كما لم تطلّ حياة السلطان ملكشاه بعد مقتل وزيره «النظام». وبهذا تصدق نظرية القائلين بأن: «التاريخ يعيد نفسه فى بعض الاحيان» إذا تشابهت الأسباب وتماثل الأشخاص».

ضريحه فى أصفهان:

تدلنا الأخبار الواردة إلينا فى معظم المصادر التاريخية أن السلطان «ملكشاه» استأنف سفره بعد أن ودّع جثمان الفقيد متظاهرًا بالحزن والأسى لفقده وبلغت أنباء نعيه بغداد فى يوم الأحد ١٨ رمضان فجلس عميد الدولة للعزاء به فى الديوان ثلاثة أيام وحضر الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين نزعاتهم وخرج التوقيع يوم الثلاثاء. وفى آخره: فى بقاء «معز الدولة» مما يجبر المسلمين ويعضّد أمير المؤمنين[4].

وحمل نعشه على أكتاف غلمانه عائدين به إلى أصفهان ـ واستقبله أهلها بحرارة وألم.. وفى ركن من مدرسته فى محلة ـ كَران ـ التى يشقّها نهر عظيم غاية فى الحسن والجمال[5]، وضع جثمان الراحل العظيم. وكانت هذه

(١) ابن الطقطقى ـ الفخرى ص ١٨٦.

(٢، ٣) المرجع نفسه ص ١٩٠، ١٩٣.

(٤) المنتظم جـ ٩ ص ٦٤-٦٨ ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ.

(٥) عن كنج دانش ص ٣٥٠، وروضات الجنات، وطبقات السبكى جـ ٣ ص ١٤٣.

المحلة آنذاك عامرة بالسكان مزدحمة بأعلام الشافعية ومنهم: «صدر الدين الخجندى» الذى بنى «النظام» مدرسته من أجله، ويطلق الأصفهانيون على ضريجه اسم «تُربت نظام».

ولم يبق من آثار هذه المدرسة سوى إيوان طرأ عليه بعض التصليحات فى عهد ـ ظل السلطان ـ الصفوى، ويضم تحت سقيفته عدة قبور فى مقدمتها مرقد الوزير «نظام الملك» كما ترشدنا آثار الكتابات التى لم تزل باقية على جدرانه الجانبية وبخاصة الأمامية.

إن بقايا الخطوط المحفورة على رخام القبر تدلنا على أنه يحوى رفات الوزير إذا وصلناها واستنتجنا ما تآكل من حروفها وانطمس من كلماتها بمرور الأعوام، وهو قليل وأنه حقّا عندما كان يُطلق على هذا المقام «تربة النظام»[1]. . . . فالكتيبة التى تواجه الزائر تشهد بذلك إذ تنص على ما يلى:

«واصل كشته بجوار مرحمت وغفران وفايزشد بغرفات جنان وروضة الرضوان حضرت مغفرت مآب. . . المفاخر بافتخار الأكابر والأعاظم والأصاغر. . . وزير خواجه. . . الملك المؤيد. . . بتوفيق الله».

وبمقارنة النص بنظائره من الكتائب المألوفة فى مثل الألواح التى توضع على قبور كبار الرجال عند الفرس نستطيع أن نصل إلى الترجمة الكاملة قريبة من الأصل أو هى الأصل فى أغلب الظن: «وصل إلى جوار الرحمة والغفران وفاز بغرفات الجنان وروضة الرضوان حضرة المغفور له تاج المفاخر فخر الأكابر والأعاظم والأصاغر وزير السلطان (ملكشاه) الخواجة نظام الملك المؤيد بتوفيق الله».

ثمّ إن ضخامة الضريح وفخامة المرمر الذى اكتسى به واختيار موضعه وانتقاء

(١) هندوشاه ـ تجارب السلف ص ٢٨٠، ويرى أستاذنا نشأت أنه «قاجارى».

الآيات القرآنية المنقوشة على جانبيه فضلاً عن العبارات الفارسية والعربية التى تتضمن بعض الدعوات والصفات والألقاب وعدم وجود أحد ولا سيما مؤرّخى أصفهان[1] من يذكر صاحب هذا القبر أو يذكره ثم ينسبه لشخص آخر.. جميع هذه الأمور ترشدنا إلى أنه مدفن وزيرنا «النظام» وأنه مثواه الأخير.

ها هنا اضطجع الذى قال فيه إمام الحنابلة فى عصره أبو الوفاء بن عقيل: «رأينا فى أوائل أعمارنا ناسًا طاب العيش معهم من العلماء والزهّاد».. وأمّا (النظام) فإن سيرته بهرت العقول جودًا وكرمًا وحشمة وإحياء لمعالم الدين فبنى المدارس ووقف عليها الوقوف، ونعش العلم فكان سوقها فى أيامه قائمة، والعلماء مستطيلين على الصدور من أبناء الدنيا وعمّر الحرمين ودور الكتب، وما ظنّك برجل كان الدهر فى خفارته لأنه كان قد أفاض من الإنعام ما أرضى الناس، وإنما كانوا يذمّون الدهر لضيق أرزاق واختلال أحوال فلمّا عمّهم إحسانه أمسكوا عن ذم زمانهم».

وقال فى وصفه مرّة أخرى نقلاً عن كتابه ـ الفنون: «ترك الناس بعد موته، أمّا أهل العلم والفقراء ففقدوا العيش بعده بانقاطع الأرزاق، وأمّا الصدور والأغنياء فكانوا مستورين بالاستغناء عنهم، فلمّا عرضت الحاجات عجزوا عن تحمل بعض ما عوّدوا من الإحسان فانكشفت معايبهم من ضيق الأخلاق فهؤلاء موتى بالمنع وهؤلاء موتى بالذم.. وهو حىّ بعد موته بمدح الناس لأيامه. ثم ختم له بالشهادة فكفاه اللّه أمر آخرته كما كفى أهل العلم أمر دنياهم.. ولقد كان نعمة من نعم اللّه على أهل الإسلام فما شكروها فسلبوها»[2].

---

(١) تاريخ أصفهان.

(٢) من الكتب الضائعة قيل إنه فى أربعين مجلدة ضمنّها مذكراته ومشاهداته ومعارفه فى مختلف العلوم والفنون ونقل عنه الكثيرون منهم: ابن الجوزى.. إلخ.

ـ ابن الجوزى ـ المنتظم جـ ٩ ص ٦٨ ـ حوادث سنة ٤٨٥هـ، والسبكى ـ الطبقات جـ ٢ ص ١٢٥.

ورثاه كثير من الشعراء العرب والفرس بعد موته كما مدحوه فى حياته فمن أولئك أبو الهيجاء شبل الدولة[١] بهذين البيتين اللذين تناقلهما المترجمون له فى ختام سيرته:

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة يتيمة صاغها الرحمن من شرف
عزّت فلم تعرف الأيام قيمتها فردّها غيرة منه إلي الصدف

ومن هؤلاء الشاعر الفارسى الشهير ـ أنورى[٢] ـ إذ كان فى ركابه يوم اغتياله فقال[٣] ما تعريبه شعرًا:

لظلم الفلك القاسى مضى حامى الورى لما مضى من عالم الأرض نظام الملك حاميه
وراحت عندما راح من الأرض السفارات وقد كان لسّم الدهر ترياقًا يداويه

أمّا ـ «النظام» ـ فممّا يحكى عنه أنه كان يردد الأبيات، الفارسية التالية قبل أن يلفظ نفسه الأخير[٤]، فقال ما ترجمته نثرآ.

مرت ثلاثون سنة محوت بها من جبين الدهر ـ الأيام ـ الظلم فخورًا بعظمة السلطان المحظوظ، ولمّا حُمّ القضاء وقد مرّ من عمرى ست وتسعون ـ خطأ فى العمر ـ، ومتّ على إثر ضربة سكين فى هذا السفر فقدّمت الصحيفة الناصعة

---

(١) هو مقاتل بن عطية بن مقاتل البكرى الحجازى. انظر: ترجمته فى وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٤٤، والنجوم الزاهرة جـ ٥ ص ٢٠٤.

(٢) أمين أحمد الرازى ـ هفت اقليم ـ مادة خراسان.

(٣) والأصل الفارسى هو:

حامى جهان زجور أفلاك برفت بينى ونظام عالم خان برفت
آن زهر زمانه راجو ترياق بُوَدْ أو رفت وسفارت جهان باك برفت

(٤) والأصل الفارسى:

سى سال باقبال نواى شاه جهان بجور كردستم اذ جهده ايام ستردم «نهاية البيت الفارسى» جون شدز قضامدت عموم نوز وشش اندوسفر اذضربت يك كاردبمردم
منشورنكو نامى وطغراى سعادت بيش ملك الفرس بتوقيع ثوبردم
بكده اشتم انى خدمت مردانه بفرزنداورا نجد اوند سيردم

البيضاء وخاتم الحكم لملك الفرس موقعة بتوقيعك ووضعتها أمامك، وهذه الخدمة الخالصة لنجله الكريم، أُحيلها إلى الله تعالى[1].

رحم الله تعالى وزيرنا ـ نظام الملك ـ وتغمّده بفيضٍ من حنانه ورحمته بقدر ما عمل للإنسانية والإسلام من خير، ودرأ عنها من بؤسٍ وشرّ. إنه سميع مجيب.

* * *

(١) مراجعة التعريب وتدقيقه للمرحوم ـ جعفر الخليلي ـ الأستاذ الأديب، وله مؤلفات فى اللغتين وأثرهما المتبادل فى الشعر والنثر.

obeikandl.com